

دبلوماسية المال مزقت الأمة العربية

سعيد الشهابي

دبلوماسية المال أصبحت نمطاً ليس مقبولاً فحسب، بل مطلوباً في العلاقات الدولية، وبذلك حل محل الاعتبارات الایديولوجية الأخرى في التعامل بين الدول. وحتى الامس القريب كان للايديولوجيا السياسية دورها في توجيه علاقات الدول واقامة التحالفات.

لكن مرحلة ما بعد «الربيع العربي» وما تبعها من ظواهر خصوصاً الإرهاب والطائفية والإسلاموفobia شهدت تطوراً بنرياً على هذا الصعيد. فمثلاً كانت مصر محور العمل العربي المشترك عقوداً عديدة، ولم تكن تملك المال الذي تشتري به موافق الدول.

لكنها طرحت مشروع القومية العربية الذي جذب الدول العربية الأخرى لموافقتها، وأصبحت الهوية العربية عنواناً للعمل العربي المشترك الذي تصدرته الجامعة العربية.

وطرحت السعودية في مواجهة ذلك مشروع «العمل الإسلامي المشترك» من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي، واستطاعت احداث استقطاب جديد محوره الروابط الدينية بين أكثر من خمسين دولة في العالم، ولم يكن للمال دور كبير في نشوء تلك المحاور.

أما الغرب فكانت علاقاته الدولية تنطلق من شعاراته البراقة: الحرية والديمقراطية، لمواجهة نفوذ الاتحاد السوفيتي الذي أسس علاقاته على المبادئ الشيوعية والاشراكية. وكل المعسكرين عمل لتنبيه اركانه بامتلاك ترسانة عسكرية جوهرها السلاح النووي الذي تم تطويره بعد الحرب العالمية الثانية. وربما كان للمساعدات المالية بعض الدور في كسب الاصدقاء للغرب، الا ان الانتماء لأي من المعسكرين كان قائماً على أساس الهوية الایديولوجية لانظمة الحكم.

في المرحلة الراهنة تغير الكثير من ذلك. وفجأة أصبح للمال النفطي دور في تأسيس انماط جديدة من العلاقات بين الدول. واصبحت دبلوماسية المال متفوقة على الانماط الأخرى بفاعليتها وتأثيرها السريع وربما المفاجئ أحياناً.

وساهم في تعميق دبلوماسية المال عدد من العوامل: أهمها ارتفاع اسعار النفط في العقد الاول من الالفية الحالية بمعدلات غير مسبوقة حيث تجاوز سعر

برميل النفط 120 دولاراً.

ثانيها تراجع الاوضاع الاقتصادية في الغرب خصوصاً بعد الانهيار في القطاع المصرفي قبل عشرة اعوام، وتصاعد عجوزات الدول ذات النزعة التوسعية وبسط النفوذ السياسي كالولايات المتحدة وبريطانيا.

ثالثها تراجع دور الايديولوجيا السياسية في الحياة العامة. فغياب الشيوعية والاشراكية عن المسار السياسي اما بسقوط محور الاتحاد السوفياتي او عجز قياداته التاريخية (مثل فيدل كاسترو)، وضمور مشروع عدم الانحياز خصوصاً بعد تفكك يوغسلافيا التي كان رئيسها، جوزيف تيتتو، من ابرز زعماء ذلك المشروع، كل ذلك ساهم في تراجع دور الايديولوجيا في العلاقات الدولية.

رابعها تراجع الغرب عن مشروعه الديمقراطي ونزع انتهائه لسياسات الحماية الاقتصادية وجنوح الدولة للتدخل في الحياة العامة، الاقتصادية وعلى مستوى الحريات العامة وتهميشه حقوق الانسان، كل ذلك اسدل الستار على حقبة الحرب الباردة التي لعبت الايديولوجيا فيها دوراً بارزاً في العلاقات الدولية وظاهرة نشوء المحاور.

خامسها: الرغبة في الإجهاز على مشروع «الإسلام السياسي» بتضليل جهود الغرب مع أنظمة الاستبداد العربية، الامر الذي دفع بعض الدول التي كانت رأس الحرية في محاربة ذلك المشروع للتغول والشعور بعظامه مفتعلة وقدرة وهمية على تجاوز كافة الخطوط الحمراء في التعامل مع الدول الأخرى، وكذلك مع شعوبها.

جاءت ثورات الربيع العربي محاولة اخيرة لاعادة التوازن لأمة استضعفها حكامها وفرقوا شعوبها وارتنهوها للأجانب. وهنا تساقطت كافة الايديولوجيات المذكورة، فتضافت جهود دول الغرب مع انظمة المنطقة للاجهاز عليها بكل الوسائل.

وهنا تشكل محور جديد مدعم من الغرب بأجندة معقدة تشمل قضايا جوهريّة عديدة. ويمكن تسمية هذا المحور الجديد بـ«تحالف 4+1» (السعودية، مصر، الامارات، البحرين + اسرائيل). تضافرت جهود هذا المحور على اربعة محاور:

- ضرب الثورات العربية قاطبة،
- منع التحول الديمقراطي ب اي ثمن،
- استهداف طاولة «الإسلام السياسي» بتجلياتها في الحركات الإسلامية ذات المشروع السياسي،
- تصفيّة القضية الفلسطينية بشكل نهائي والتطبيع مع «اسرائيل».

ولتسهيل مهمة اعضاء ذلك التحالف سمح لهم بالعمل خارج «الممنوعات» تحت اشراف إسرائيلي مباشره، وسمح لها بالعمل السياسي والأمني والاستخباراتي خارج حدودها، خصوصاً في الدول المستهدفة من الغرب والكيان الاسرائيلي.

لكي يمكن تحقيق ذلك لا بد من تفتیت العالم العربي واضعاف دولة الكجرى، مصر والعراق وسوريا واليمن. وهذا ما حدث خلال السنوات السبع الماضية. فلو كانت مصر قوية لما استطاعت السعودية السيطرة على

الجامعة العربية ولما تصدرت العمل العربي المشترك ووجهته لخدمة اهدافها .

ولو كانت سوريا او العراق متماسكة لما شعرت دولة الامارات بهذه العظمة الوهمية التي دفعتها لاحتلال بلدان اكبر منها وأعمق تاريخا وحضاره كاليمن.

ولو كانت الجامعة العربية كيانا فاعلا لما استطاعت «إسرائيل» ممارسة عربتها المكشوفة، بضرب سوريا والسعى لضم الجولان واستقبال الوفود الرسمية والرياضية من دول التحالف المذكور. ولو كان الوضع طبيعيا لما تمكن وزير خارجية البحرين ان يفرد بدعم العدوان الاسرائيلي على سوريا او غزة. دبلوماسية المال اوجدت واقعا جديدا غير مألوف. فقد استطاعت إحداث تغييرات سياسية ونفسية في العالمين العربي والإسلامي تحول دون تكرر ظاهرة الربيع العربي، وتخلق قبولا لدى الرأي العام العربي بالواقع المر الذي من تجلياته التطبيع مع الكيان الاسرائيلي وشيطنة الدول العربية والإسلامية المستهدفة مثل قطر وتركيا وقوى المقاومة.

دبلوماسية المال وفرت للامارات الفرصة لتبني سياسة توسعية غير مسبوقة، واستعداء الدول الجارة مثل سلطنة عمان وقطر والكويت وإيران. دبلوماسية المال الاماراتي وال سعودي استطاعت وضع مصر، الدولة العربية الكبرى ذات الحضارة والموقف والاطروحات القومية الجامعة، تحت عباءة حكام الامارات وال سعودية.

هذه الدبلوماسية وفرت غطاء دبلوماسيا متينا لهذه الدول لممارسة سياسات قمع غير مسبوقة في المنطقة. فأفلت النظام المصري من المحاسبة لما اقترفته اجهزته الأمنية بحق معارضيه من الإخوان المسلمين وشباب ثورة يناير والمعارضة، فتصدر أحكام الاعدام والسجن المؤبد بالجملة، وتنتهك حقوق الانسان على نطاق هائل.

وفيما تم استهداف روسيا بدعوى محاولتها الفاشلة لاغتيال جاسوس مزدوج مع ابنه في مدينة سالزبورغ البريطانية، لم يتم استهداف عسكر مصر عندما قتل الباحث الايطالي جولييو ريجيني قبل ثلاثة اعوام. هذه الدبلوماسية ارغمت القاهرة على تسليم جزيرتين مصربيتين لل سعودية بدون اعتراض حقيقي من احد.

كما استطاع تحالف 4+1 اقناع الرئيس الأمريكي بكسر الاعراف الدولية بالانسحاب من اتفاق دولي استمرت المفاوضات بشأنه 12 عاما برغم اعتراض خمسة أطراف اساسية فيه على ذلك الانسحاب.

دبلوماسية المال هذه استطاعت تطويق العراق للتطبيع مع دول ساهمت مباشرة بدعم الإرهاب على اراضيه، واستخدمت المال للتأثير على سير الانتخابات الاخيرة وربما تشكيل الحكومة المقبلة.

ولكن هل هذه الانجازات مهيئة للبقاء والاستمرار؟ الامر المؤكد ان الدول العربية الاربع في تحالف "4+1" لا تملك قدرات ذاتية على الاستمرار بالدور الذي تمارسه في الوقت الحاضر، وهو دور مدعوم من قبل «اسرائيل» وأمريكا فحسب.

فسياسات التوسيع التي تنتهجها السعودية والامارات سوف تصطدم بمصالح الدول الغربية من جهة، وتأثر سلبا على مصالح الدول العربية والإسلامية الكبرى من جهة اخرى.

د. سعيد الشهابي كاتب بحريني.

المصدر | القدس العربي